نتائج الإحصاءات والتحليلات التي تجريها شركات عالمية منها: شيفرون، وال - مارت، فورد، أمازون، ميكروسوفت؛ إلى جانب إحصاءات لمنظمات دولية مثل جرين بيس. وتشير النتائج إلى فعالية العار كأداة جبرية لا يُستهان بها. وفي سبيل المقارنة مع أشكال أخرى تندرج ضمن العقوبات أو الكوابح الاجتماعية كإحلال غرامة مالية على بعض السلوكيات المستهجنة كالتأخير مثلاً، نجد أن المخطئين لم يرعووا عن أخطائهم، بل إنهم جعلوا من دفع الغرامة محللا لسلوكهم ومبرراً له أمام القانون والمجتمع. اختبار آخر أجري على طلبة مدارس تمّ إغراؤهم بجوائز مالية وعينية إذا ما هم أحرزوا درجات أعلى في امتحاناتهم، فكان أن تحسن أداؤهم الدراسي بشكل نسبي وارتفعت علامات نتائجهم، ولكن بشكل مؤقت، إذ ما لبثوا أن عادوا إلى سمتهم السابق.

حاولت جاكيت في كتابها توضيح الكيفية التي بموجبها يكتسب العار وظيفة استثنائية في يد السلطات والعلماء والشخصيات الاجتماعية النافذة وذلك من أجل تجنب الكوارث البيئية المحيقة بالعالم، وتتطلب مجهودات جبارة ومشتركة بين الدول. وربما يحتل هذا الموضوع أهمية خاصة في الكتاب لارتباطه بقضية حيوية في حياتنا المعاصرة، إذ ما برح التلوث البيئي يشكل مصدر قلق بالغ لدى المنظمات الدولية المختصة، وما فتئت أجراس التحذير منه تزداد صخباً وحدة. فمن خلال الإعلانات التلفزيونية وتحت ضغط الحملات الإعلامية بمختلف وسائطها، يتسنى للقائمين على الدفاع عن البيئة، التشهير بالشركات الصناعية العملاقة والمسؤولة عن مفاقمة خطر التلوث، انتقالاً إلى تنبيه المستهلكين لمنتجات هذه الشركات وتحميلهم جزءا من المسؤولية في مواجهة المشكلة، أي تحفيز الوازع العاطفي لديهم ومواجهتهم بالذنب والعار الذي سيلحق بهم من جراء مساهمتهم في تخريب البيئة. وقد أوتيت هذه المحاولات أكلها، وإن لم يكن بالشكل المرجو حتى الآن. نرى على سبيل المثال النجاح الذي يحرزه الترويج للمواد العضوية بصفتها مواد صديقة للبيئة ومفيدة للصحة. بيد أنَّ هذا الجانب من الحلول ليس إلا خطوة على طريق طويل وشاق لإنقاذ البيئة، وإن لم تتبعها خطوات أخرى متممة وشاملة، لن يكون مفعولها أكثر من رمية حجر في بحيرة

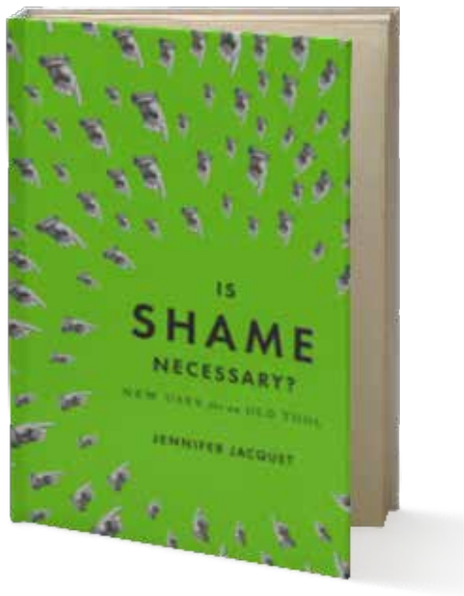

الضمير، ما تفتأ بعدها أن تعود إلى سكونها المعتاد. لذلك فالقضية كبيرة والأيدي الممسكة بسلاح العار يجب أن تكون قوية ونافذة، وألا يُترك الأفراد من علماء ومدافعين عن البيئة وحدهم في مواجهة الحيتان الضارية.

في إطار بحثها لظاهرة العار، تصوغ الكاتبة مقولات طريفة عن اختلاف تمظهر العار بين المجتمعات الغربية والشرقية. تكتب عن البلدان الغربية حيث تسود ثقافة الذنب في مقابل ثقافة العار لدى المجتمعات الشرقية: «يسود الإحساس بالذنب في الثقافات التي ترّسخ فيها مفهوم الإنسان الفرد، حيث لا أحد يعير اهتمامًا بنظرة الآخرين إليه، وبالتالي يفقد العار مصوغاته ومقدرته على التأثير. عدا ذلك يحتل الإحساس بالذنب مركزية في الضمير الفردي، ويكفي تبكيت الضمير كسوط عقاب يذكر صاحبه بما اقترفه ويبث في نفسه المشاعر السلبية. إن الحضارة الغربية هي حضارة الفرد المستقل، المسؤول عن نفسه والسيد عليها، ولكل نفس نبراسها الأخلاقي الداخلي، وهذا ما يميزهم عن الشرقيين الذين يرون أنفسهم من خلال مؤشر العلاقة مع الآخر. إضافة إلى ذلك، وانطلاقاً من الانفتاح الذي يُميز نظرة الغربي إلى الآخر، وتسامحه مع الكثير من العادات والسلوكيات الدخيلة عليه، تظهر أمامنا صعوبة في الإجماع على الخطأ الذي نستطيع أن ندمغه بختم العار».

لا تحاول الكاتبة أن تطرح العار باعتباره خيرًا كاملاً ودواء ناجعًا لأمراض المجتمع، فهو بطبيعته معيار خُلقي يحمل الخير والشر معًا، وترجيح كفة الخير فيه على الشر، أو العكس، يتوقف على اليد المتحكمة به. وبعبارة جاكيت فهو أداة فعالة شبيهة بالمضاد الحيوي الذي يكمن تأثيره في تناوله في الوقت المناسب وبالكميات الصحيحة.

أوردت الكاتبة أمثلة واقعية على التأثير السلبي والخطير لاستخدام العار كسلاح لمواجهة الآخرين حيث أدى إلى حالات انتحار، كما تلقى البعضُ رسائل تهدد بالقتل عن ذنب لا يرقى إلى مستوى التهديد، وانجرّ آخرون إلى التطرف في إظهار مشاعر النفور من شخص المذنب بدل انتقاد الذنب، ما يضع سلوكاً كهذا في خانة الإهانة الصرف وليس المعالجة والإصلاح.

يبدو أنَّ العار يفقد بريقه في حياتنا المعاصرة بعد أن تقادمت آلته وصدئت أنصاله. وإن كان لم يزل له مقام بين قوم وشأن يُعتد به، فإنما لدى المجتمعات التي مازال أفرادها يتحصنون خلف عاداتهم وتقاليدهم القديمة ويعضون على السمعة الحسنة بالنواجذ. مع ذلك يكشف لنا هذا الكتاب، بلغة ذكية ورشيقة، أن الوقت مازال باكرًا للإعلان عن هزيمة العار، بل إنّه يجزم بأهميته للمجتمعات المتحضرة، وما خسارته إلا خسارة لسلاح فعال ضد العنف والقوة الغاشمة، وما هي إلا خسارة لميزان طبيعي وإنساني للعدالة خارج قاعات المحاكم. وليس مصادفة أن تختار المؤلفة في مستهل كتابها مقطعاً للمخرج الروسي أندريه تاركوفسكي يقول فيه: «العار - هذا الشعور الذي سينقذ البشرية». ويتبعه مقطع آخر كتبه أو صرح به إدوارد فون كلوبرغ وهو أحد رجالات اللوبي الأمريكي حيث يقول: «العار هو مصير الضعفاء»... وقد ألصق بهذا الأخير لقب محامي الشيطان كما أنهى حياته منتحرًا.

الكتاب: هل من ضرورة للعار؟ وظائف جديدة لأداة قديمة

المؤلف: جينيفير جاكيت

اللغة: الإنجليزية

الناشر: Knopf Doubleday Publishing Group

عدد الصفحات: ٢٢٤

* أكاديمية ومستعربة روسية

هل من ضرورة للعار؟ وظائف جديدة لأداة قديمة... جينيفير جاكيت

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

بالرغم من أنَّه الكتاب الأوَّل لهذه الباحثة، إلا أنَّ العمل لاقى صدى كبيرًا من قبل القراء، وقوبل بحفاوة من لدن النقاد كما ترجم إلى العديد من اللغات العالمية. المؤلفة الأمريكية جينيفير جاكيت، وهي أستاذة في قسم بحوث البيئة في جامعة نيويورك، يرتكز مجالها البحثي وعملها الأكاديمي، إلى جانب التزامها الفكري ودأبها الإنساني، في الحدود الفاصلة (والرابطة) بين قضية حماية البيئة والتضامن الاجتماعي بين البشر. ويدور في فلك اشتغالها، تقصي الفواعل الاجتماعية التي تقود إلى كوارث بيئية من قبيل صيد الأسماك الجائر وتبدل المناخ. وقد دأبت جاكيت على النشر في مجلات علمية من قبيل مجلة (سنتيفيك أمريكان) وغيرها من المجلات الصادرة في الولايات المتحدة، وذلك إلى أن ساورتها الرغبة وحرضتها الخبرة العلمية والتجربة الصحفية المتراكمة لتأليف هذا الكتاب.

بنبرة أسيانة متحسرة ولكنها قوية مُتحدية تذكر الباحثة السبب الذي حدا بها لتأليف كتابها، تقول في هذا الصدد: «بسبب ما فعله البشر بالأرض، وما ألحقوه بساكنتها من الكائنات المختلفة، وانطلاقًا من إحساسي بفداحة الذنب واستفحال الكآبة، كماً وإخلاصًا لنضالي الداخلي، أقدمت على تأليف هذا الكتاب. اهتماماتي متجذرة - قبل كل شيء - في قضايا البيئة والشعور بالذنب تجاهها، ومنها -بعد ذلك - تتفرع إلى آفاق أرحب».

إنَّ الإحساس بالذنب والخوف من الوقوع في العار سمتان إنسانيتان، قديمتان قدم الإنسانية. وهما آلة لطالما استخدمها المجتمع لمراقبة أفراده، ونسج من خلالها الأنظمة والقوانين التي حددت العلاقات داخل الجماعات البشرية. أما السؤال الذي تطرحه الباحثة وتحاول الإجابة عليه فيضع مفهوم العار في إطاره الزمني الراهن. ومن خلال إضاءتها لجوانبه المختلفة، تخرج لنا جاكيت بنتائج غير متوقعة عن نهوض العار بدور جديد وفعّال في المجتمعات الحديثة. فمع الظروف والإمكانات المعاصرة وبفضل تكنولوجيا الإعلام والتواصل الاجتماعي المتطورة، والتي يسعها أن تنشر المعلومات عن الأشخاص والمؤسسات في لمح البصر، يصبح للعار قوة تأثيرية ناجزة على الفرد والمؤسسة. كما تساور الباحثة ثقة كبيرة بالفاعلية الإيجابية التي تكمن في الخوف من العار والاحتراز من عواقبه، بل وترى أنَّ خصائص العار تكتسب أهمية أكبر في ظل تحديات العولمة التي يواجهها الإنسان الحديث. وحسب فرضيتها، فإن تفاخر الناس بأفعالهم والسعي لإشهارها أو التبجح بها، وهي سمات تطبع سلوكيات الإنسان الحديث، من شأنها - بالمقابل - أن تُعزز من مكانة العار وتؤسس لشكل جديد من أشكال الإحساس بالمسؤولية الفردية والمؤسساتية على حد سواء.

يؤرخ الكتاب لظاهرة العار ومظاهره ويبني التنبؤات لمستقبله وذلك بأسلوب يمتح من علم النفس مسلكه التحليلي ومن علم الاجتماع منهجه الاستقصائي. كما تدرس المؤلفة طبيعة العار والذنب: تُحدد موقعهما في قائمة العقاب الاجتماعي وتُفسر كيفية عملهما في حياة الناس. وبطريقة علمية واضحة، تبْسط لنا الباحثة الأمريكية مفهوم العار وتبرز سماته واختلافاته وذلك على خلفية العواطف المشابهة له كالحرج والإحساس بالذنب وغيرهما من المشاعر التي تجعل من الإنسان حَكما وقاضياً على نفسه. وتربط جاكيت برباط لا ينفصم بين العار وعادات المجتمع، وإن كانت هذه الأخيرة قابلة للتغير والتفكك عبر الزمن. وفي سياق تتبعها التاريخي والنفسي والاجتماعي للعار، تحصد الكاتبة العديد من الأمثلة التي تبرهن على التأثير الكبير للعار على الفرد، وهو تأثير تتجاوز آثاره الإحساس (الضمني) بالذنب، وبالتالي تتجلى لنا القوة الاجتماعية العظيمة للعار. وأخيراً تشرح جاكيت الكيفية التي تمكننا من الاستفادة من العار وتمظهراته، واستخدامه كآلة نافذة التأثير في عالم يربطنا ببعض كما لم نرتبط من قبل، ويُشعرنا بالوحدة مثلما لم نشعر بها في أيّ وقت مضى. قصارى القول يخلص الكتاب إلى نتيجة مفادها أنّ العار سيف ذو حدين في مجتمعنا المُعاصر، فهو عقاب للمذنب وردع للصفيق؛ والحال كذلك، فهو - أخيراً - أداة اجتماعية يمكن الاستفادة منها لدعم أسس العدالة في المجتمع.

نتابع في الكتاب مراحل من تاريخ عقوبة العار وذلك قبل استحداث السجون، حيث تمثلت العقوبة بالإذلال الجماعي المعلن. فهاهو الجاني في اليونان القديمة يحمل على جلده وشمًا يدلل على انحرافه. وهاهي أوروبا القرون الوسطى ترفع لصوصها على الأعمدة بينما العار يرفرف على نواصيها. وهاكم ألواح الهنود الحمر التي نُحتت فيها معاصي الجناة بإزميل قوي وفاضح. وصولاً إلى زمن تسجيل الفيديوهات الساخرة عن السياسيين وتحميلها في الإنترنت، أو عرض بالونات على شكل فئران ضخمة أمام مكاتب الشركات المخالفة والمعتدية، وغيرها من الحيل الحاذقة والملفتة التي يلجأ إليها الأفراد أو فريق من الأشخاص من أجل شحذ الانتباه نحو الجناة والفاسدين وتأليب الرأي العام ضدهم، وبالتالي إلصاق العار على جباههم.

تدعم المؤلفة مقولاتها بأمثلة أحرز فيها العار- باعتباره عقاباً غير عنيف ومتاح للكثير من الأفراد والهيئات الحكومية - نتائج ملموسة وساهم في حل مشكلات اجتماعية، كما ورفع مستوى التضامن لدى الأشخاص. وهكذا فمنذ عام ٢٠٠٧ تنشر إدارة ولاية كاليفورنيا الأمريكية سنوياً قائمة بأسماء ٥٠٠ فرد وشركة ممن تهربوا من دفع ضرائب تزيد قيمتها عن مئة ألف دولار. وعلى غرارها قامت سلطات مدينة نيويورك بتدشين موقع إلكتروني يحمل (وتضاف إليه باستمرار) أسماء أسوأ المُأجرين في المدينة ممن تزايدت عليهم شكاوى الجمهور، كما تُعرض وصلة لهذا الموقع على مواقع إعلانات العقارات المحلية بحيث يستدل الزبون إلى القائمة السوداء قبل القيام بالاتصال والاتفاق مع صاحب العقار.

تعتمد الكاتبة في بحثها على عدد كبير من الاختبارات والتجارب النفسية والاجتماعية التي أجرتها بنفسها أو استعانت فيها بزملائها من المُختصين؛ كما تستفيد من